الفصل الرابع

أيام في دربنت

التحضير للبعثة إلى دربنت

وهكذا كان أمام البعثة الجديدة مهمتان: التنقيب عن القبور في تلال ستيبان رازين، والبحث عن النهاية التحت مائية لسور دربنت وإذا كانت الأولى تؤدى بالأعمال الأثرية العادية (فأنا - يقول المؤلف عن نفسه - ما زلت لا أتصور الصعوبات التي سنصطدم بها) فإن الثانية تتطلب تحضيراً خاصاً وقبل كل شيء إتقان فن الغوص بجهاز التنفس تحت الماء.

إن جهاز التنفس تحت الماء هو اختراع عبقري في الحقيقة لأنه لا يعيق حرية الإنسان في الحركة ويعطي إمكانية أسهل في التحرك تحت الماء أكثر من السباحة على سطحها، ولكن الخبرات المطلوبة من الغواصين تختلف عن التي للسباحين العاديين. وعلاوة على ذلك فإن العمل من دون شريك تنهى عنه قواعد تقنية السلامة وبالتالي يلزم في الحد الأدنى إلى غطاسان اثنان مع جهازي غطس.

ومن المفيد تبيان صعوبات التغلغل في حوض السباحة حيث يدربون على الرياضة تحت الماء عندما يجد المتدربون أنفسهم بظروف خارج حدود الموضوع مع أن لها صلة به، وكانت نوعية شريكي جيليان ميخائيلوفتش بروخوروف الطالب في كلية التاريخ هي الأهم لنجاح الأعمال.

فالطالب المذكور أعلاه الذي سنسميه فيما بعد ببساطة جيليا، بدا في عام ١٩٦٠م بالدورة الأولى وبعد ذلك التحق بالخدمة العسكرية وحصل على فترة تدريب وكان يسبح أفضل مني، وأمضينا معاً دورة تدريب رياضية تحت الماء.

وتعجب المدرب إلى درجة مخيفة عندما امتنع جيليا عن التدريب للمشاركة في المباريات ولا سيما أنه أرسلنا كي نتدرب كطلاب على الغطس والسباحة.

اليوم الأول في دربنت
(السبت في ٥ آب ١٩٦٠م)

جئنا نحن وجيليا واندريه زيلنسكي إلى استراخان وقابلنا أ. أ. أليكسين وتوجهنا مباشرة إلى دربنت. وهناك قدم لنا مركز الإنقاذ المائي ورئيسه فاسيلي فاسيليفتش ضيافة حارة وأنزلنا في إحدى الغرف في بيت صغير على أطراف بلاج (الشاطئ الرملي) دربنت. وسمح لنا باستخدام واحد من زوارق الإنقاذ لأعمال البعثة. وبعد أن استقر بنا المطاف خرجنا كما هو متبع في البعثات إلى الغرض المطلوب.

ومثل أمامنا بحر قزوين بشكل مغاير كلياً عما هو عند مصبات الفولغا فهنا لم تكن ولا دقيقة هدوء واحدة، أمواج خضراء هائلة تتدحرج على قاع صخري تعصف وتهوي على الشاطئ الرملي، وفي الوقت الذي توقف فيه البحر عند المنسوب ناقص ٢٨م كان الشاطئ المنخفض أملسَ وأيضاً على بعد ١٠٠م منه تجاوز العمق قامة الإنسان. وكان اليوم هادئاً لا ريح فيه الأمر الذي يكون نادراً للغاية على شاطئ دربنت وارتدينا نحن وجيليا جهاز التنفس تحت الماء ومضينا للبحث عن النهاية الجنوبية للسور الذي وصلت أنقاضه إلى حافة الماء.

وهنا اصطدمنا بأولى عقبات استيعاب الاستطلاع التحت مائي، فلما غطسنا في الماء غبنا مباشرة عن بعضنا بالنظر وأخرجت رأسي من الماء مراراً ولكني لم أرَ جيليا، وكما شرح لي عند العودة تصرف مثلي تماماً وهكذا سبحنا مدة منفردين كل على حدة. وحصل خير أن الطقس كان هادئاً ولم تقع أيّ مخاطر، ولكن للمستقبل يجب الأخذ بالحسبان إمكانية الضياع تحت الماء حيث الرؤية بغض النظر عن القناع محدودة.

ل. ن. غوميليوف وواحد من مشاركي البعثة أ. ن. زيلنسكي

وكانت نتيجة الشوط الأول سلبية وأنقاض السور الجنوبي تنتهي على اليابسة ولا تصل إلى حافة الشاطئ، وهذا

يعني أن المنسوب المطلق نحو ناقص ٢٦-٢٥م وهذا أعطى السبب لاستنتاج أن السور الجنوبي لم يدخل في البحر أبداً لأنه لو كانت نهايته السفلية موجودة كنا قد رأينا الحجارة المنهارة على الأساس الصخري.

ويجب القول أن حال السور الجنوبي على اليابسة هي أيضاً سيئة جداً، فالقسم الأكبر منه كان قد خرب عند بناء المدينة السفلى عند البحر، فهذه المدينة لم تدخل في الحدود القديمة وتوسعت إلى الجنوب ولكن التخريب لم يستطع أن يطال القاع البحري، ولو حصل ذلك فإن الناس ليسوا مسؤولين عن اختفاء بقايا السور الجنوبي تحت الماء، ويجب التوصل إلى النتيجة الحتمية الناتجة عن المعاينة المباشرة. وهي أن السور الجنوبي بني ليس بوقت واحد مع السور الشمالي وأن مستوى بحر قزوين لم يرتفع إلى المنسوب المطلق ناقص ٢٥م أو أعلى ولم تعد هناك حاجة للدفاع من جهة البحر. ولكن في ذلك الوقت ما كان يمكن أن تكون الفرضة المحمية بسلسلة محدودة بأي حال من الأحوال من الجنوب بامتداد السور الجنوبي الذي ليس لها به أيّ صلة. وعلاوة على ذلك لا تستطيع أيّ سلسلة أن تمتد نصف كيلومتر من دون مساند حجرية قوية ومثل هذه المساند على الجهة الجنوبية للتحصينات لم تكن موجودة ومن الواضح أن أوصاف الجغرافيين العرب تعود فقط إلى السور الشمالي. ولذلك ركبنا القارب وتحركنا إليه على امتداد الشاطئ وكان القسم السفلي منه بالقرب من الخط الحديدي مفكوكاً ولكن حواف الأقسام الباقية منه بعرض ٤م تبرز من بين الأشجار الجنوبية الخضراء الظليلة على شكل بقع رمادية واضحة، وبمحاذاة السور أطرقنا بنظرنا إلى الأسفل وشاهدنا من خلال المياه الخضراء الكتل الحجرية الساسانية الهائلة مستقرة جانباً، وكانت المسافة إلى الشاطئ نحو ٢٠٠م والعمق كما دل عليه مقياس الأعماق البسيط الصنع هو ٣.٥م وبعدما ارتدينا أجهزة التنفس تحت الماء نزلنا إلى القاع (تحسسنا بالأيدي الحجارة الملساء التي منذ أكثر من ألف سنة لم تمسها يد إنسان) وبلغ عرض انهدام الكتل التي كان السور مكوناً منها ٧٠م وعلى كلا الجانبين إلى الجنوب والشمال تمتد سويحة غرانيتية ملساء ومغطاة بطبقة من الرمال الناعمة تنخفض بسلاسة إلى الشرق إلى مسافة نحو ٣٥٠م من الشاطئ ثم تبدأ الأعماق تتزايد بسرعة وبالتالي انتهت المصطبة الشاطئية الدالة على التوقف الطويل لمستوى البحر في العصر الذي علينا تحديده.

وبهذا توصلنا إلى إنهاء أعمالنا في اليوم الأول لأن رياحاً شمالية - شرقية قد هبت وتعكر الجو وأسرعنا إلى الشاطئ. وتشتهر الفرضة الدربنتية بتموجها الدائم الذي بسببه تتجنب الاقتراب منها حتى السفن الحديثة، وكم كان هذا صحيحاً!! إذ سرعان ما تأكدنا من ذلك بأم العين!.

اليوم الثاني في دربنت
(الأحد ٦ آب)

كانت أولى مهماتنا هي وضع طريقة للمسح على الماء فلو كان عندنا ما يكفي من الأفراد والأدوات - لكان ذلك سهلاً إلى حدٍ ما ولكن عندما نكون أربعة أشخاص فقط وليس لدينا إلا بوصلة توجيه واحدة ومهداف واحد يكون الأمر معقداً إلا أن أ. أليكسين وجد مخرجاً لذلك. فخلف بقعة شهباء من قطاع السور تراءى برج المنارة السابقة الملاصق لقسم السور الذي على اليابسة وبهذا الشكل حصل على نقطتي علام وبالجمع بينهما علّمنا (أشّرنا) مصراع السور. وإلى الجنوب قليلاً من السور ارتفع خزان الماء. فإذا أوقفنا القارب في مصراع (فتحة) السور ووجهنا البوصلة نرى خزان الماء ونحصل على الزاوية بين هذين الاتجاهين بوقت واحد وحسب أ. أليكسين بسرعة تناسب الزوايا مع المسافات من الشاطئ وشكل الجدول الذي استخدمناه بقية الوقت. وكان التفاوت المسموح أو مقدار الخطأ لمثل تلك القياسات نحو ١٠م ولكن بوجود التموج الدائم كانت الدقة الكبيرة لا يمكن تحقيقها، وعلاوة على ذلك كانت غير ضرورية لنا لأن مهمتنا هي تحديد المنسوب المطلق لنهاية السور، وعلى مسافة ١٠م يتغير العمق بالإجمال عدة سنتمترات الأمر الذي ليس له أيّ أهمية.

ومضى صباح هادئ في القياسات والحسابات وقبيل منتصف النهار هبت الرياح من جديد وأجبرتنا على العودة إلى الشاطئ، وكان موقف القارب على بعد ١كم من مكان العمل وكان يتطلب منا العمل بقوة بالمجاذيف في كل عودة على قارب بحري ثقيل، إلا أن الأصعب منذ ذلك كان النزول على الشاطئ لأن قاع الشاطئ الدربنتي رحراح جداً (منحدر تدريجياً جداً) وفيه حجارة كبيرة مبعثرة وقد تبدأ كيلة[١] القارب بالاصطدام بالحجارة على بعد ٢٠م من الشاطئ عندئذٍ يجب القفز من القارب ودفعه من عمق يصل إلى الخصر في الماء والقفز واحداً واحداً لكي يستفيد الأفراد حتى النهاية من قوة الأمواج التي تصطدم بالشاطئ وعند الأمتار الأخيرة يمسك الجميع بجوانب القارب ويسحبونه من الحجارة على الرمل وبعد ذلك يبدأ الأصعب وهو ضرورة انتشال القارب من الماء إلى مكان جاف لكي لا ينجرف إلى البحر أثناء التموج، وهنا تستدعي مساعدة أياً كان يريد

١- Keel كيل = عارضة رئيسية أو قطعة فولاذية تمتد على طول قعر القارب - المترجم.

المساعدة لأن هذه المهمة لأربعة أشخاص - هي أكبر من طاقتهم وعند الهتاف «واحد - اثنان - ابدأ» و «مرة أخرى - ابدأ» يستقر القارب في مكانه.

ولو أن هذا سيكون في كل الأيام من سحب القارب الذي يسبقه من ساعتين إلى ثلاث ساعات تحت أشعة الشمس الحارقة و ٤٠-٦٠ دقيقة في الماء وتحت الماء، فحتى زملائي الجلودون الأقوياء لن يبقى في مقدورهم الدخول إلى الغرفة المقدمة لنا والاستلقاء والنوم من ٥-٦ ساعات والوصول إلى المطعم وتناول طعام الغداء في المدينة.

وبدلاً من ذلك كنا حين يأتي المساء ويخلو الشاطئ نخرج أكياسنا إلى الخارج ونفرشها عند البحر (يقصد أكياس النوم: المترجم) وقبل أن نستغرق في النوم نتطلع إلى النجوم الجنوبية الساطعة منصتين إلى هدير الأمواج المتواصل وفي هذه الساعات ينسى رفاقي التعب ناهيك عن أني بدلاً من أعمال التنقيب السهلة حملتهم على الغطس والسباحة زد على ذلك أني كنت أصرخ عند أقل تأخير في الأعمال، إضافة لما سأتحدث عنه في وصف الأيام القادمة. وبغض النظر عما هي الملحمة الدربنتية - فهذه واحدة من أحب الذكريات إلينا.

obeikandl.com

اليوم الثالث في دربنت
(الاثنين ٧ آب)

من الصباح وقبل أن نتمكن من تناول الفطور هبت الرياح. وفي هذا اليوم قررنا أنه يجب الخروج إلى البحر ليس بعد الساعة الخامسة صباحاً لأنه حتى الساعة ٨-٩ يسوقنا التموج (اضطراب الأمواج) إلى الشاطئ، وها نحن قد تأخرنا وكنا مجبرين في الساعة السادسة والنصف أن نقرر أن الخروج خلال اضطراب الأمواج عند الشاطئ ليس بالمستطاع. فما العمل؟ لقد اضطررنا إلى الاقتصار على نزهة على الشاطئ ولكن ظهر أيضاً أنها مفيدة للغاية. فعند حافة الماء ذاتها ولعدة أمتار جنوبي مصراع السور الشمالي شاهدنا أنقاضاً كبيرة من الصفائح المدهشة لا تشبه إطلاقاً الصفائح الساسانية ممتدة على طول الشاطئ عمودياً على السور وهي مقتطعة من الحجر الكلسي الرمادي بطول ١.٩م وعرض ٠.٤م وسماكة ٠.٢م وكانت مزخرفة بأنصاف أسطوانات وتشكل والصفائح نصباً منحوتاً من حجر واحد ويتراوح طول أنصاف الأسطوانات من ٠.٢-١.٧م وبارتفاع من ٠.٣-٠.٥م وكانت كثيرة بما فيه الكفاية وهي منقولة من أنقاض الصفائح الساسانية وقررنا أنه ليس هناك أيّ إمكانية لمعرفة ماذا تعني وكيف جاءت إلى هنا.

واشتد اضطراب الأمواج في البحر وقررنا الصعود إلى القلعة لكي لا نضيع الوقت هباء، وجئنا أولاً عبر المدينة الروسية الصاخبة المسلية النشيطة الممتدة بالقرب من الخط الحديدي ثم طلعنا في شارع عريض مملوء بالمخازن حيث الأولاد السمر اليهود يتراكضون من كل الأزقة ثم وجدنا أنفسنا في منطقة البازار ودهشنا من الهدوء والسكون اللذين يسودان في ما يفترض أن يبدو مكاناً كثير الحركة، والجبليون - المسلمون جالسون بمجموعات في ظل الجدران الطينية مدخنين صامتين، والنساء والأطفال موجودون في مكان ما خلف الجدران لا يخرقون السكينة، وهنا انتهت مدينة دربنت الحية وبدا الدرج إلى المدينة - المتحف حصن قلعة دربنت وليس بمقدوري أن أعطي انطباعاً عن عظمة الأسوار الساسانية الكتل الهائلة التي قامت قرونا دون قطرة واحدة من الملاط الكلسي، ومن خلال المزاغل (فتحات رمي السهام - المترجم) يرى البحر والجبل وفي أعماق الأقبية الحجرية تتلألأ المياه وقوة حياة الأشجار والشجيرات تكمن في بذورها الصغيرة جداً المبذورة في التربة الحضارية للقرون ٦-٨م.

نعم!، تعجز الكلمات عن التعبير عن ذلك! ونزلنا من القلعة إلى المنحدرات الجبلية التي تشاهد فيها مقابر «الأغنياء» الذين عاشوا قبل محمد كما شرح لنا موظفو المتحف المحلي.

واقتربنا من بلاطات الأضرحة وعرفنا فيها تلك البلاطات عينها التي تناثرت بغير ترتيب على شاطئ البحر. ومن الواضح أنه احتيجت مواد لإصلاح نهاية السور فيما مضى واستخدم شخص ما بوقاحة البلاطات الجاهزة، وهنا ورد إلى الذهن مصادفة الحادث الذي جرى هنا في عام ١٥٨٧م. إذ جاءت ذات يوم قافلة من الشمال وتوقفت للمبيت عند الأسوار لكي تتابع رحلتها عبر المدينة عند الصباح عندما تفتح البوابات، إلا أن البوابين تحققوا في الصباح من عدم وجود القافلة - فالجمال دارت حول السور في الماء. وبعد ذلك أمر الشاه عباس الأول بالبناء في البحر «هناك حيث الأعماق كافية بحيث لا تستطيع الجمال عبورها. برجاً كبيراً ووصله مع السور الشاطئي» وكان الأسهل للبنائين أخذ بلاطات الأضرحة من المقابر غير المحروسة وجرها إلى مكان العمل.

وبهذا الشكل فسرنا اتفاق لقانا الصباحية مع المسائية وحددنا معاً المنسوب المطلق لبرج عباس بناقص ٢٨.٥م.

اليوم الرابع في دربنت
(الثلاثاء ٨ آب)

كما يقولون: نكاية بنا اشتدت العاصفة ولا يمكن، حتى الحديث، عن الخروج إلى البحر، وعليه طرحنا تجربة المراقبة من خزان الماء، ومن قمة هذا المنشأة الخشبية الخرقاء نَطَّلِع إلى مسافة تفوق بكثير تلك التي تهمنا.

وبدت الأمواج في الأماكن العميقة رقراقة ولكنها تتصادم مع صخور الشاطئ الموجودة على عمق ٢-٣م فهي ترغي وتتحول إلى أمواج مزبدة بيضاء، وهنا شاهدنا بوضوح أنه على خط مستقيم من مصراع السور تتشكل بالضبط تلك الأمواج المزبدة نفسها كالتي عند الشاطئ وهذا يعني أن النهايات السفلى للأمواج تصطدم بحاجز يمكن أن يكون فقط حجارة السور. وباستخدام أجهزة قياسنا البسيطة عَلَّمنا (وضعنا علامة على) نقاط التموجات الأعظم وهذا يعني التجمعات الأكبر لبقايا البناء، والأبعد منها تقع على بعد ٣٠٠م من الشاطئ والأقرب على ١٠٠-١٥٠م وكان بينها انقطاعات غير كبيرة حيث كان البحر هادئاً قليلاً، وبهذا الشكل حددنا النقاط التي يجب إعارتها الاهتمام الأكبر ويلزم للبحث الأولي عنها بمجمله من يومين إلى ثلاثة أيام من الطقس الهادئ وهي غير متوفرة. وتبسم مضيفنا فاسيلي فاسيليفتش بدهاء وقال لنا «البحر لا يبوح بأسراره» وفي تلك اللحظة كنا مهيئين للتصديق أنه على حق ولكني تذكرت أن المنخفض الجوي الصغير يمر خلال ثلاثة أيام وبما أن هذا المنخفض كان بالضبط هكذا لأنه كان من السهل التأكد من ذلك من اتجاه الرياح، لذلك لم نفقد الثقة بأننا سنخرج غداً إلى البحر والوقت الذي ضاع بسبب الطقس استفدنا منه لمعاينة السور الشمالي، وكان

من المستغرب كيف خطط ببساطة المهندسون المعماريون الإيرانيون في القرن السادس بدقة وإحكام حدود مناطق أديمات (صفحات) الأرض فإلى الشمال يمتد السهب القائظ الجاف على مدى البصر وتعرفنا سابقاً على هذا النوع من صفحة الأرض، هذا اللسان الممتد بين ذيول (أطراف) سلسلة جبال القفقاس وشاطئ بحر قزوين فهو يصل إلى أساسات سور دربنت وينتهي. وإلى الجنوب تقع التلال الصخرية التي تتخللها خمائل الجوز وشجيرات من أنواع ما غير مألوفة إلى حد ما، وهنا حتى الهواء مختلف فهو شبه حار ولكنه منعش وقاسٍ قليلاً. فهنا حياة أخرى وتقاليد حضارية أخرى تشعر بها ليس فقط في مبنى بل وحتى في كل حجر أو قطعة من وعاء. في هذا المكان هنا عاش الناس الحضر ودافعوا عن أرضهم ضد الرحل الشماليين.

ومع أن وصف السور لا عيب فيه إلا أننا اصطدمنا بحقيقة واحدة لم نعطها أهمية منذ البداية، ففي جنوبي السور نفسه كان مطموراً في الأرض مرة هنا ومرة أخرى هناك أمفورات طينية هائلة قسم كبير منها محطم الآن، ولكن بقيت الحفر والكسرات ولا شك أنها كانت أوعية للمياه الضرورية للمدافعين عن السور، ففي أوقات الحر وتحت أشعة الشمس المباشرة لا يمكن الصمود طويلاً من دون الماء لذلك حفر البناؤون الفرس أخذاً بالحسبان صعوبة الإمداد الدائم بالماء في ظروف الحصار خزانات المياه التي تبقى فيها المياه باردة ولا تفسد لمدة طويلة ولكننا لم ندرك أهمية تلك المشاهدات والنتائج المرتبطة بها لأن أفكارنا كانت متجهة إلى البحر.

اليوم الخامس في دربنت
(الأربعاء ٩ آب)

كان الصباح هادئاً وظهر سطح البحر على ما يبدو نفوذاً لأشعة الشمس الطالعة القرمزية. وفي الساعة الخامسة صباحاً أزحنا القارب دفعاً إلى الماء وعند الخامسة والنصف كنا في مصراع السور واستحالت الأشعة الوردية إلى برتقالية - انفصلت الشمس عن خط الأفق.

وكانت النقطة الأولى للغطس واقعة على بعد ١٠٠م من الشاطئ وأخرتنا لمدة قصيرة وحددنا محيط انهدام البلاطات الذي امتد ٣٠ متراً إلى الشمال و ٤٠ متراً إلى الجنوب على عمق ٢م. ومن دون تأخير تحركنا إلى النقطة الثانية وهنا ارتكبنا خطأً تكتيكياً (ترتيبياً).

فبدلاً من أن نمضي ١٠٠م ونستمر بالغطس خطر لنا أن نتقاطع بسرعة مع نهاية السور من جهة البحر وفي الواقع كان هذا مناسباً في الظروف التي لا يتبدل الطقس فيها. أما عن الأخير (أي الطقس) فنحن لم نفكر في مضاعفة العمل.

وهكذا في الساعة السابعة أصبحنا على مسافة ٦٠٠م من الشاطئ وحددنا هناك وعلى عمق ٥.٥م قاعاً رملياً منبسطاً من دون أيّ آثار تدل على النشاط البشري. وتحركنا ١٠٠م أيضاً في عرض البحر بعيداً عن الشاطئ - العمق ٧.٥م ووجدنا الشيء ذاته. وهذا يعني أن هنا عند المنسوب المطلق ناقص ٣٦م (المدرج الشاطئي الأخفض) كان بحر عميق في القرن السادس الميلادي.

وعدنا إلى النقطة ٣٠٠م عن الشاطئ واكتشفنا نهاية السور وقد سرنا ذلك جداً لأن المشاهدة التحت مائية أكدت المشاهدة من على خزان الماء (برج الماء) وقد عثرنا بحراً في مصراع السور فقط على حجر كبير واحد عليه آثار الشغل، ومن الواضح أنه فُقِد هناك بالمصادفة. وقد كانت تقنية المسح في هذا اليوم بعيدة كل البعد عن التمام وقد سبحت في البداية في مياه هادئة ومن خلال زجاج القناع تصفحت القاع محدداً الغرض والمهمة ثم صعدت إلى القارب وأمسكت بالبوصلة واليومية (دفتر المذكرات - المترجم) أما جيليا (برخوروف) فقد غطس إلى القاع واستكمل عمليات الاستكشاف البصري متلمساً الحجارة ثم ظهر فجأة وأبلغ عن المعلومات التي حصل عليها دون أن يبتعد عن مكان الصعود وسجلتها كلها في الحال. وبعد ذلك انتقلنا إلى النقطة التالية وكان العيب الأساسي في هذه الطريقة هو أنها تتطلب الكثير من العمل وبالتالي البطء النسبي في الأعمال، وحالاً دفعنا لقاء ذلك غالياً، ففي نحو الساعة التاسعة هبت رياح من البحر وبدا اضطراب الأمواج وارتفع الرمل من القاع وانخفضت الرؤية تحت الماء واضطررنا إلى إنهاء يوم العمل، وأثناء التشاور اتخذنا قراراً وجلسنا وراء المجاذيف واشتدت الرياح لدرجة أنها حملتنا وبالحرف الواحد إلى الجنوب وخرجنا بصعوبة بالغة إلى الشاطئ ولكن نتائج الأعمال بقيت مقنعة، والأهم هو أننا أكدنا عدم وجود المتاريس أو حاجز الأمواج (المكسر) وأن السور بني مباشرة على أساس القاع الصخري، وبالتالي ظهرت أخبار الجغرافيين العرب على أنها تخيلات أشخاص حاولوا تفسير ظاهرة غير مفهومة - السور الطويل الداخل في البحر. ومن حيث المبدأ تم التوصل إلى حل المسألة ولكن يجب إكمال المسح التحت مائي.

اليوم السادس في دربنت
(الخميس ١٠ آب)

عند الفجر غادَرَنا أ. أ. أليكسين وابتلع (وسرق) الطقس العاصف تلك الأيام التي استطاع أن يخصصها للعمل المشترك أما الآن فتنتظره سهوب ما وراء الفولغا. وقد كان عسيراً علينا أن نفقد مساعدته ونصائحه، ولكن مضيفنا رئيس مركز الإنقاذ فاسيلي فاسيليفتش وافق على الخروج معنا إلى البحر ومساعدتنا لأنه لو بقينا ثلاثة لما كنا استطعنا أن نتدبر أمورنا.

وفي هذا الصباح توجهنا مباشرة إلى مكان انتهاء السور، وترك عندي شرود جيليا المفاجئ انطباعاً مؤلماً. لقد قام بكل ما كان ضرورياً، بشكل تلقائي وكأن أفكاره كانت في مكان بعيد، ولكني طرحت الشك جانباً لأنه كان علي أن أجذف وأن أقف في المصراع وأن آخذ السموت، أو بالمختصر، لم أعر علم النفس انتباهاً على الإطلاق. وفي هذا الصباح هبت الرياح قبل المعتاد إلا أننا لم نستعد للرجوع. وانتهت المحاولة الأولى لإيقاف القارب في المكان بالفشل اقتلعت المرساة من الرمال وحملنا إلى الوراء إلى الجنوب وعدنا مرة أخرى وألقينا المرساة في مصراع السور وفي هذه المرة علقت المرساة بصورة متينة ولكن الحبل كان مشدوداً كالوتر، وعند العودة تزحزحنا قليلاً لجهة البحر المفتوح أكثر من اللازم، وكان العمق ٦م بدلاً من ٥ أو ٥.٥م واقترحت على جيليا وفاسيلي فاسيليفتش الغطس ومعاينة القاع والعودة حالاً لكي ننقل القارب أقرب إلى الأنقاض، وبدا لي أني أعطيت أمراً بمنتهى الدقة. وكان هو كذلك، وارتدى جيليا بمظهره الشارد جهاز التنفس تحت الماء واختفى تحت الماء وتبعه فاسيلي فاسيليفتش ونحن واندريا بدأنا بأخذ السموت وتحديد مكاننا على المخطط، ومضت عشر دقائق ثم عشرون ولم يظهر أحد من الماء واشتدت الرياح وبدأت الأمواج المزبدة السطحية تعدو حول القارب، ووصلت حيرتنا إلى حد القلق، فماذا حدث؟ وأخذت الأمواج تؤرجح القارب.

وفجأة برز رأس جيليا من الماء ولوح بيده ونادى بشيء ما ولكن الريح حملت الكلمات إلى الجنوب - الغربي وبالإيماءات (بإشارات اليد) دعوناه للعودة ولكنه غطس ثانية وظهر فجأة مرة أخرى ولكن لمدة أطول قليلاً، وفهمت أن الأمواج حملته لأن البحر كان هائجاً هنا حتى القاع نفسه ولوح لنا جيليا بيديه، وكان واضحاً أن قواه قد خارت، واندفع أندريا إلى المرساة لكي نمضي لملاقاة جيليا ولكنني من غير وعي بما فعلت أبعدته عن حبل المرساة. وعندئذٍ نزع جيليا وبوجهه المجهد عن كتفيه أحزمة جهاز التنفس تحت الماء ملقياً بالجهاز الثقيل وسبح حسب كل القواعد باتجاه القارب وكأنه في امتحان في حوض السباحة. ولم أشعر بمثل هذا التوتر والرعب لا في الحرب ولا فيما وراء التايغا القطبية ولا في

شعاب الباميرا أبداً. ولكن جيليا سبح خلال الأمواج ونحن واندريا سحبناه إلى القارب، وفي اللحظة ذاتها تقريباً عاد فاسيلي فاسيليفتش وكنا من جديد معاً.

ويبدو أن جيليا في شروده تظاهر بأنه لم يسمع تعليماتي وبدلاً منها لكي لا يعود دون أن يرى الحجارة مضى يبحث عن السور وابتعد عن مكان الوقوف وعن انفعالاته تحت الماء تحدث هكذا «عندما وصلت إلى القاع فهمت مباشرة أننا ألقينا المرساة بعيداً جداً عن الشاطئ، وكان تحتي أرض ملساء ومن الواضح أن الحجارة غير موجودة، فقلت في نفسي أن حافة السور في كل الأحوال يجب أن تكون قريبة، وسبحت فوق القاع نفسه باتجاه الشاطئ ثم سبحت وسبحت وعملت الزعانف بقوة وتعجبت أن البلاطات جميعها لم تظهر، ووفقاً لاتساع الانهدام ٧٠م انحرفت لدرجة أنه كان من غير الواقعي أن أكون أسبح بموازاة السور، وظهر أيضاً أننا نحن لا يمكن أن نكون قد أخطأنا في اختيار مكان وقوف قاربنا تقريباً وآثار اللغز فضولي ودل مقياس الضغط عندي على أن الهواء في الأسطوانات قد استنفد منه فقط الثلث، وقررت أن أسبح إلى الأمام ما دمت لم أرَ الحجارة ولم أفهم ما هذا الأمر، وفي الأعلى اشتدت الريح وتزايد اضطراب الأمواج (التموج) وكان ذلك واضحاً لأن المياه تعكرت أكثر فأكثر ولكن ذلك السور يجب أن يكون في مكان ما قريب! وظهرت الحجارة فجأة بالقرب مني ومن جهة غير متوقعة: ليس من الأمام وإنما من اليسار باستقامة إلى حد ما مع حافة السور المقترب مني من اليسار والخلف، والممتد في العكر (المياه العكرة) إلى الأمام واليمين، وازدادت دهشتي من أن هذا الخط بدا لي - ليس مستقيماً وإنما مقوساً قوساً معتدلاً. وعمت لثانية إلى السطح المتلاطم - لأتأكد هل أخطأت أنا في الاتجاه أم لا؟ لم أخطئ: إن طرف السور لم يمتد بشكل زاوية قائمة إلى الشاطئ، إذن لأغطس لمسافة ما على امتداد هذا الطرف. وتأكدت أن هذا السور تقوس وصارت حافته الآن موازية للشاطئ، ثم يتقوس فيما بعد من جديد إلى جهة الأعماق. لقد كنت في داخل البرج الهائل الذي له فتحة «بوابة» من جهة البحر تلك التي سبحت منها وبهذا توضح كل شيء، وبعدما قمت بهذا الاكتشاف ثارت ثائرتي ولوحت بيدي للجالسين في القارب لكي يؤشروا /يضعوا إشارة/ نقطة وجودي ولدهشتي ظهر القارب بعيداً جداً عني أكثر مما افترضت. كنتفة صغيرة ووثبت فوق الأمواج ولم أدر هل انتبه لي ليف نيقولايفيتش أو أندريا.

واقترب مؤشر مقياس الضغط إلى ٣٠ ض/ج (ضغط جوي) ودل ذلك على أنني يجب أن أعود فوراً فغطست وسبحت بسرعة إلى القارب ولكن سرعان ما توقف تدفق الهواء (توقفت التغذية بالهواء - المترجم) من الأسطوانات عندما وصل الضغط إلى النصف ووقف مؤشر مقياس الضغط كما في السابق نحو الرقم ٣٠ وجربت عدة مرات مص الهواء الضروري لي. ولكن بلا جدوى، ونتيجة لنفاد الهواء يحدث التشنج في الرئتين فارتفعت إلى سطح الماء لأتخلص من

الهواء المحتقن وأتنفس وعند ذلك ملأت قمة موجة فمي بالماء، وغرقت بالتفكير إن جهاز التنفس تحت الماء يغرقني - فذلك ملائم أثناء العمل عند القاع، ولكن الآن أثناء البحر المائج والهواء الذي نفد وهذا الفقدان غير الكبير للوزن الذي يسلب الكثير من القوى، اضطررت للارتفاع عدة مرات إلى سطح الماء ولما لاحظت أن الرياح والأمواج تحملني إلى الجنوب، وهم لم يستعدوا لرفع المرساة، عندئذٍ نزعت القناع وحللت ورميت شاتماً جهاز التنفس الثقيل الذي دل مقياس ضغطه كما في السابق على الرقم «٣٠» وسبحت إلى القارب بنفسي» (وها نحن أثناء التدريب الشتوي في الحوض أنقذنا إنساناً والنتائج العلمية للبعثة).

يا لها من سعادة لأني لم أسمح لأندريا أن يرفع المرساة فباثنين معاً لن ننجح بتوجيه القارب إلى الرفيق الذي يغرق لأن الموج والرياح ستدفعنا بالقرب منه بسرعة القطار أما عن العودة بعكس الريح فلا يمكن أن يدور الحديث أبداً وكان إلى الشاطئ لا أقل من ٣٠٠م وليس بمقدور شخص متعب أن يسبح هذه المسافة وسيموت كلا الغواصين وهيهات أن نسلم نحن.

أما الآن لما جلس خلف الدفة الخبير فاسيلي فاسيليفتش ونحن جذفنا مع الريح الملائمة بدا أن الخطر قد زال.

وتقاذفت الأمواج الخضراء بسهولة القارب عبر الحجارة الشاطئية التحت مائية وفقط عند الشاطئ نفسه عندما بدأت الكيلة تحتك بالقاع قفزت إلى المياه الضحلة وأردت دفع القارب، وفي تلك اللحظة رفعتني موجة حارة بلطف ووضعتني جانباً على القاع الصخري أما القارب الثقيل مع المجذفين الثلاثة فقد انقض علي بالسهولة نفسها ولو لم تصطدم كيلة القارب بالحجارة لبقي من رجلي عصيدة دموية، ولكنه لم يصل إليهما بمسافة ١٠سم وكانت الصدمة قوية لدرجة أن المجذفين وقعوا واصطدمت آلة تصوير أندريا بظهر القارب وتحطمت.

إلا أن ذلك كان آخر تجربة اليوم وعند الشاطئ أسرع إلينا المنقذون وأمسكوا بالقارب وسحبوه إلى الرمل الجاف. وفي هذا اليوم لم نعمل أكثر أما العاصفة فاسترسلت لدرجة أن السباحة منعت عند الشاطئ.

اليوم السابع في دربنت
(الجمعة ١١ آب)

استمر الإعصار بالهيجان ولكن في اليوم التالي يجب أن يهدأ. وذهبنا مرة أخرى إلى القلعة فمن هناك نشرف على السور والبحر، وفي هذه المرة رأيناهما برؤية جديدة.

وجغرافيو القرن العاشر الميلادي العرب لم يخطئوا فحسب وإنما توهموا كثيراً جداً وعلى ما يبدو أنهم لم يضطروا للغطس في البحر العاصف والأيام الهادئة في دربنت نادرة - خارجة عن الحالة المألوفة، والمهندسون الفارسيون ليس عبثاً بنوا البرج الذي يكمل السور على عمق كبير.

وكان كافياً لأغراض الدفاع لو كان العمق من حوله ١-١.٥م لأن الرماة النبالة من البرج لن يسمحوا للعدو أن يشق طريقه إلى تحت جدران البرج نفسها، ولهذا السبب كان الفرسان الأتراك على خيولهم غير المحذية سيصرعون في الحال من اضطراب الأمواج عند الشاطئ وحظهم كبير في الغرق أكثر منا في اليوم السابق.

ولذلك أصبح مفهوماً لماذا فضلت القوات التركية - الخزرية في عام ٦٢٧م اقتحام أسوار دربنت بدلاً من الالتفاف من البحر، ولا شك أن معاصر الاستيلاء على دربنت الذي بقي وصفه في مؤلفات الأرمني موسيان كالانكاتوتيان كان شاهد عيان للاقتحام.

ولا يستشف من وصفه أن القلعة الواقعة على التل حيث ترابط الحامية الفارسية على مدى السهام من المدينة قد سقطت، أما المدينة والسور اللذان يدافع عنهما قوات مدينة (وحدات شبه عسكرية) من السكان المحليين لم تستطع إيقاف الأتراك والخزر.

غايشاه (حاكم الإقليم الفارسي من الأمراء المحليين) «رأى ما حدث للمدافعين عن مدينة تشورا (التسمية الأرمنية لمدينة دربنت - ل. غ[1]) ومع القوات الموجودة على الأسوار المدهشة التي من أجل بنائها أنهك الملوك الفرس بلادنا جمعاً للمهندسين المعماريين وبحثاً عن المواد المختلفة من أجل بناء المبنى العظيم الذي بني ما بين جبال القفقاس والبحر العظيم شرقاً، مشاهداً الخطر الرهيب من جهة الجموع الدميمة، الشنيعة عراض الوجوه الدنيئة العديمة الأهداب التي بهيئة النساء المسدلات الشعور (الوصف الأنثروبيولوجي - الأنثروبيولوجيا - العلم الذي يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وإثنوساته وعاداته ومعتقداته - المترجم. لشكل وتسريحة الشعر عند الأتراك - ل. غ). يندفعون إليهم، وتملكت الرعشة السكان وبخاصة عند رؤية الرماة المهرة الأقوياء الذين كالبرد القوي انهالوا عليهم،

١- إن الحرفين ل. غ. يدلان على اسم المؤلف ليونيد غوميليوف أينما وقعا في الكتاب - المترجم.

وكالذئاب المفترسة التي نضبت ماء وجوههم انقضوا عليهم وذبحوهم بلا رحمة في شوارع وساحات المدينة ولم تبق عيونهم لا على الحسان ولا الصغار ولا الفتيان من الرجال والنساء، ولم يتركوا حتى الضعفاء ولا المسالمين ولا المعاقين والعجزه لشأنهم (بسلام) ولم يندموا ولم تنقبض قلوبهم لمرأى الأطفال المعانقين أمهاتهم المذبوحات الذين يرضعون الدم بدلاً من الحليب منهم، وكما تنتشر النار في القصب المحترق هكذا دخلوا في باب وخرجوا من آخر تاركين مجازرهم هناك طعاماً للطيور الجارحة والوحوش».

وهنا وصف لحالة اقتحام كلاسيكي (نموذجي) عندما شل الرماة مقاومة المدافعين واخترق المهاجمون السور بلا مقاومة تقريباً مساعدين بعضهم بعضاً.

وشاهد العيان شاهد على ما يبدو مأساة مدينة ميلاده (مسقط رأسه) من القلعة. ولو أن الأعداء قاموا بالالتفاف من جهة البحر (كما ذكر أعلاه - المترجم) فإنه لا يمكن أن يغفل عن ذلك ولا سيما أن البحر يبدو من القلعة كراحة اليد.

وراجعنا انطباعاتنا صعوداً من القلعة إلى الأعلى إلى التلال الشديدة الانحدار فهناك لم تكن أسوار متصلة وإنما امتد بدلاً منها نظام من الحواجز والجدران المكونة من الحجر غير المنحوت والملاط الكلسي وتكسيتها مسروقة وعَوَّض عن الضعف النسبي للمنشآت الدفاعية الاستفادة الناجحة الفذة من تضاريس الأرض، التلال السفحية المنحدرة تدريجياً على الجنوب والشرق ومن الجهة الشمالية محدودة بجرف عمودي تقريباً وهي حتى حين عام البحر حول قطعة السور ما زالت منيعة حتى في الوقت الحاضر وحتى لو اقتلعت بشكل عمودي فلا يمكن أن يشكل الهجوم خطراً.

ووصلنا إلى حصن غير كبير مبني من صفائح من العهد الساساني، ومن الواضح أنه كانت هنا واحدة من نقاط المراقبة لأنه من جرف المكان يطل إلى مسافة هائلة، أجل لقد كان الأتراك والخزر على صواب بتفضيلهم الهجوم الجبهي لأن أيّ مناورة أخرى كانت معقدة.

وعدنا متأخرين في الليل إلى الشاطئ والريح هادئة ولكن الأمواج ما زالت هائجة.

اليوم الثامن في دربنت
(السبت ١٢ آب)

ومع أن البحر غير هادئ تماماً خرجنا صباحاً إلى الهدف ومن غير أن نضيع ولا دقيقة أنزلنا الغطاسين جيليا وفاسيلي فاسيليفتش مع العوّامات إلى الماء وقمت بإجراء لقطات تصويرية ثم صور أندريا ثانياً بآلة التصوير التي سَلِمَت، وفي أقل من ساعة قمنا بالمسح البصري الذي لم نستطع القيام به بأسبوع وهذا ما تعنيه الخبرة والتنسيق بالعمل، ولما هبت الريح ثانية وبدأت القمم البيضاء بالتراقص فوق الأمواج الخضراء صعد غطاسونا إلى المركب وناولني جيليا هدية فخمة: هي كسرة من أمفورا وجدها بين أنقاض الحجارة على عمق ٤م أو منسوب مطلق ناقص ٣٢م وكان من المستحيل الخطأ بها. لقد كانت قطعة بالضبط مثل الأوعية التي عثرنا عليها مطمورة في الأرض على طول السور حيث عملت كخزانات للمياه وهذا يعني أنهم في القرن السادس الميلادي احتاجوا إلى الماء في ذلك المكان الذي يغطيه البحر الآن، وإذا صح ذلك فإننا وجدنا ما نبحث عنه - مستوى البحر في القرن السادس وسمح لنا تصويرنا لأنقاض «البرج» بفهم أخبار الاسخريوطي عن السلسلة التي تقفل مدخل ميناء دربنت، وكما يبدو أن «البرج» عمل كمرفأ مغلق حيث كان العمق أكبر بقليل من المتر لأن المنسوب المطلق للقاع داخل «البرج» هو ناقص ٣٣.٥م وكان ذلك كافياً للسفن ذات الغاطس الصغير، وعلى ما يبدو تم التحكم بالمرور إلى البرج بالسلسلة التي تغلقه وفي داخل هذا المجال المغلق من المياه الهادئة كان التفريغ والتحميل يتمان ببساطة، وينتهي السور إلى البرج مباشرة ويتحد معه عرضياً ومن أعلى السور مر الناس لكي يركبوا السفن أو ينزلوا عنها وفي النهاية أصبح كل شيء مفهوماً وبسيطاً.

وأثارت أعمالنا اهتمام حتى إحدى الفقمات الفتيات فطوال الوقت كانت تظهر فجأة ليس بعيداً عن القارب وتنظر باهتمام وخطمها المشورب اللطيف بين الأمواج البيضاء - الخضراء حفظناه في ذاكرتنا كثيراً، وكان من الضروري الإسراع إلى الشاطئ إلى حيث تدفعنا بإصرار الرياح الشمالية - الشرقية.

وجلسنا أنا وأندريا إلى المجاذيف وفي لمح البصر اجتزنا بسرعة عبر أول سلسلة من الحجارة، وأظهر البحر مرة أخرى كم هو قدير: اصطدم مجذاف أندريا الجالس إلى يميني فجأة بحجر لأن القارب أنزاح إلى جهته فصادف المجذاف مسنداً فخرج من ممسكه وأفلت من يد أندريا ومر بسرعة في الهواء بعيداً عدة سنتمترات عن وجهي بقوة قادرة على شق جمجمة.

وهنا أدركت مقدار وسوسة البحارة لأن لا شيء يقدر أن يغير من اعتقاد فاسيلي فاسيليفتش من أن البحر يحتفظ بأسراره لنفسه وينتقم من الذين يسرقونها.

ولكن كنا متعبين لدرجة أننا لما نزلنا إلى الشاطئ لم نستطع الدخول في مناقشة واستلقينا نتطلع إلى السماء واعتبرنا إننا أنجزنا العمل الذي صممنا عليه وكنا محظوظين ونجونا من الخطر: وبقينا ثلاثتنا أحياء.

اليوم التاسع في دربنت
(الأحد ١٣ آب)

كان الصباح صحواً والبحر هادئاً. آه... لو بدا الطقس هكذا منذ أسبوع من قبل! وبقي علينا فقط الفحص المباشر وغطسنا نحن وأندريا على التوالي مستخدمين جهاز التنفس تحت الماء الذي سلم وسبحنا فوق الحجارة وعدنا برضىً كامل: ولم يتجاوز الخطأ المسموح أثناء قياساتنا الأمتار العشرة الذي في ظروف التموج الدائم كان مثالياً، وأكدت القياسات اللاحقة القياسات السابقة بحدود التفاوت المسموح، وصار واضحاً من النظرة الأولى وصف المسعودي الخيالي لبناء قطعة السور البحري.

وعلى ما يبدو أن تثبيت الصفائح الساسانية الثقيلة على اليابسة جرى بالبكرات والحبال وعدد كبير من الناس (الرجال) وكان ذلك في ظروف التموج الدائم ليس فقط صعباً وإنما ببساطة مستحيلاً بالنسبة لأناس غاطسين في الماء ينزلقون على الحجارة وتتقاذفهم الأمواج، وليس لديهم أي مرتكز يستندون عليه لكي يسحبوا حجارة معدومة الوزن الذاتي حسب قانون أرخميدس، ووجد مهندسو القرن السادس الفارسيون مخرجاً لذلك في تخفيف الحجارة ذاتها، حيث ربطوها إلى قِرَب لعبت دور العوامات. وعندما تكون البلاطات في وضع التعليق يتم تثبيتها في المكان وبعد ذلك تقطع الأحزمة وتدخل القرب في العمل من جديد. وكان ممكناً إشادة مثل هذا البناء على عمق أقل من قامة الإنسان وهذا يعني على عمق ١.٥م وكان لا مفر من بعثرة الحجارة بالنسبة للأعماق الكبيرة. ونقل البلاطات الساسانية أيضاً تحت الماء كان أكبر من طاقة أمهر الغطاسين.

وبهذا الشكل كان المنسوب المطلق لقزوين عند نهاية القرن ٦م ناقص ٣٢م أما في منتصف القرن ١٠م فصارت المياه أعلى بكثير (ناقص ٢٩.٥-٢٨.٥م) لأن القلعة الأخرى المقامة بالقرب من باكو في عام ١٢٣٤م (المسماة كرفان - ساراي ويشهد على تاريخ بنائها الكتابة العربية المكتوبة على جدارها) موجودة على هذا المستوى ويكتب عالِم المحيطات ب. أ. أبوللوف الذي نقب عن هذا الأثر «عند بناء القلعة عرف علماء ذلك الزمان أن مستوى البحر من الزمن الماضي المعروف لا يرتفع إلى أعلى من التل، وإلا لكانوا ما بنوا القلعة عليه. وعلى الأرجح أن ذلك الوقت هو من ١٠٠-٢٠٠ عام على كل حال».

وبالأخذ بالحسبان طبيعة تراوح مستوى قزوين المتطورة بوثبات يجب اعتبار أن طغيان البحر بمقدار ٢.٥-٣م قد حدث في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، وحتى لحظة زيارة الجغرافيين العرب إلى دربنت لم تتمكن الأمواج بعد من تخريب السور مع أنها غمرته على امتداد ٣٠٠ عام، وإن منظر السور الذي يحده البحر قد أثار ولا بد حب الاستطلاع عند الجغرافيين العرب لزيادة الاهتمام لمعرفة الشكل الذي بني به هذا السور القوي للغاية على هذا العمق الكبير، وأنهم بسؤال السكان المحليين كونوا الفرضيات التي لا تتوافق بشكل كامل مع الحقيقة ولكنها تعكس معرفة زمانهم.

وبالوصول إلى هكذا نتيجة اعتبرنا أن مهمتنا منفذة وعند فجر اليوم التالي غادرنا دربنت.

قزوين والطقس وخازاريا

والآن ظهرت لنا المعلومات لكي نستكمل «البقعة البيضاء» في مخططاتنا التاريخية - المناخية للفترة ما بين القرنين السادس والثالث عشر الميلاديين، وخلال ذلك الوقت ارتفع بحر قزوين مرتين في القرن العاشر ثلاثة أمتار، وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر عشرة أمتار وكلا الارتفاعين توافقا مع تغير اتجاه تحرك الأعاصير (المنخفضات الجوية) وبالتالي يجب أن ينعكسا على مصائر الشعوب الأوروبية والآسيوية، وأن القرن العاشر هو قرن ازدهار ملاحة الفايكنج[1] وبسهولة غير مألوفة وغير ممكنة في أيّ عصور أخرى امتلك النورمانديون آيسلنده وشواطئ غرينلاند التي سموها في عام ٩٨٦م «البلاد الخضراء» ونيوفاوندلاند وفي هذا الوقت نفسه جرى بصورة غير منتظمة وعفوية انتقال القبائل الرُّحّل من السهوب الجافة من أراضي كازاخستان الحالية إلى الجنوب والغرب، فهاجر الكارلوك في أواسط القرن العاشر من البلخاش إلى فرغانة وكاشغر وجنوب طاجيكستان الحالية. وترك البتشينيغ شاطئ بحر أورال في نهاية القرن التاسع وذهبوا إلى نواحي الدنيبر واتجه من بعدهم التركمان أو الغُزّ وانتشروا بين الفولغا والأورال. وهذا الانتقال ليس على نطاق كبير جداً ولكنه دليل على توافقه مع تغير غير كبير أيضاً في مستوى قزوين مما يؤكد صحة الفرضية التي اتخذناها، ولكنها ليست أساساً لربط هذه التحركات مع الأحداث السياسية الضخمة، لأنه في الوقت ذاته وعلى أراضي منغوليا الشرقية

١- الفايكنج: مجموعة من الإسكندنافيين قاموا بتسيير حملات بحرية للسطو في أنحاء العالم، وذلك في القرن الثامن إلى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي، وعُرفوا في روسيا القديمة باسم الفارياغ، وفي أوروبا الغربية بالنورمانيين.

الواقعة خارج حدود تأثير الأعاصير (المنخفضات الجوية) الأطلسية كان لتاريخ الاويغور دورة مختلفة تماماً.

والأويغور هم الشعب الأهم في آسيا الوسطى الذي انتشر في أواسط القرن السادس من سفوح آنشان على كل السهب العظيم من أورخان حتى الارتيش، وخلافاً للجوجان والتيورك كان الأويغوريون والقبائل الشقيقة لهم أكثر ميلاً إلى العمل السلمي، كتربية الماشية، ولاستيعاب ثقافة الشعوب الأخرى وإلى جانب ذلك أظهروا دوماً شجاعة خارقة وكانوا حاذقين بالرمي من القوس والغارات غير المتوقعة على الجيران، وقادتهم ليسوا خانات وإنما رؤساء منتخبون لا يضيقون من حريتهم، إلا أنه بالرغم من كل صفاتهم الرائعة فقد ظل الاويغوريون زمناً طويلاً تابعين للأتراك القدماء الذين «استبسلت قواتهم في صحارى الشمال» الأمر الذي لم يسر الأويغوريين كثيراً، وانتهت بعض المحاولات التي قام بها الاويغوريون للتحرر في القرن السابع الميلادي بالفشل، ولكن الطبيعية والزمن لم يعملا لمصلحة الأتراك بل لمصلحتهم. فالترطب الغزير للسهوب سمح بتوسع مساحة المراعي وبالتالي زيادة في كمية القطعان. وفي الوقت الذي حقق فيه الأتراك الشهرة في الحملات الطويلة رافقهم قسم من الاويغور أثناء ذلك. وأثرى الاويغوريون عامة وتكاثروا. ولما أنزلت إمبراطورية تان بكل قوة جيشها النظامي في عام ٧٤٤م الضربة بالخاقانية التركية انضم الاويغوريون إلى المهاجمين، وسوية مع الكارلوكاميين سحقوا الأتراك القدامى وبهذا أمنوا لأنفسهم سيادة استمرت ١٠٠ عام على القسم الشرقي من السهب.

وكانت الفترة من سنة ٧٤٥ إلى ٨٤٠م الأكثر خصباً لنمو الحضارة الآسيوية المركزية - حضارة آسيا الوسطى) فبنى الأويغوريون المدن ومارسوا الزراعة واستدعوا المعلمين الماهرين النساطرة والمانويين، ولم يستوعبوا الثقافة الصينية فقط مفضلين الحصول على الحرير لا العقيدة من الصين، ولكن تربية القرون التي اعتادت على الحكم الذاتي القبلي دفعت الأويغوريين إلى طريق السلطة المركزية المحدودة.

وكان الخانات الاويغوريون بدءاً من القرن التاسع الميلادي دمى في أيدي زعماء القبائل الذين يميلون إلى النزاع والغدر /الخيانة/ واستفاد قرغيزيو اليينيسي (سكان منطقة نهر اليينيسي - المترجم) من إحدى النزاعات الداخلية في عام ٨٤٠م واستولوا على عاصمة الاويغوريين وأجبروا القسم الأكبر منهم على البحث عن النجاة في المناطق الجنوبية من صحراء غوبي.

أما في الغرب وفي هذا الوقت نفسه تقوى شعب - ما زال قليل العدد وضعيفاً - القبشاق. وكان وطن القبشاق السفوح الغربية لجبال ألطاي وأثر التجفاف على اقتصادهم إلى الحد الأدنى، ولذلك شغلوا مكان الكارلوك والبتشينيغ والغُزّ المهاجرين. ولما ازدهر السهب في القرن الحادي عشر الميلادي مرة أخرى صاروا يسمون في مؤلفات الكتاب الفرس «القبشاق» هذا الشعب الذي

سماه المجريون الكومان أما الروس فسموه بولوفيين نجح دون صعوبة كبيرة بطرد جيرانه المنهكين بالجفاف إلى الغرب.

obeikandl.com

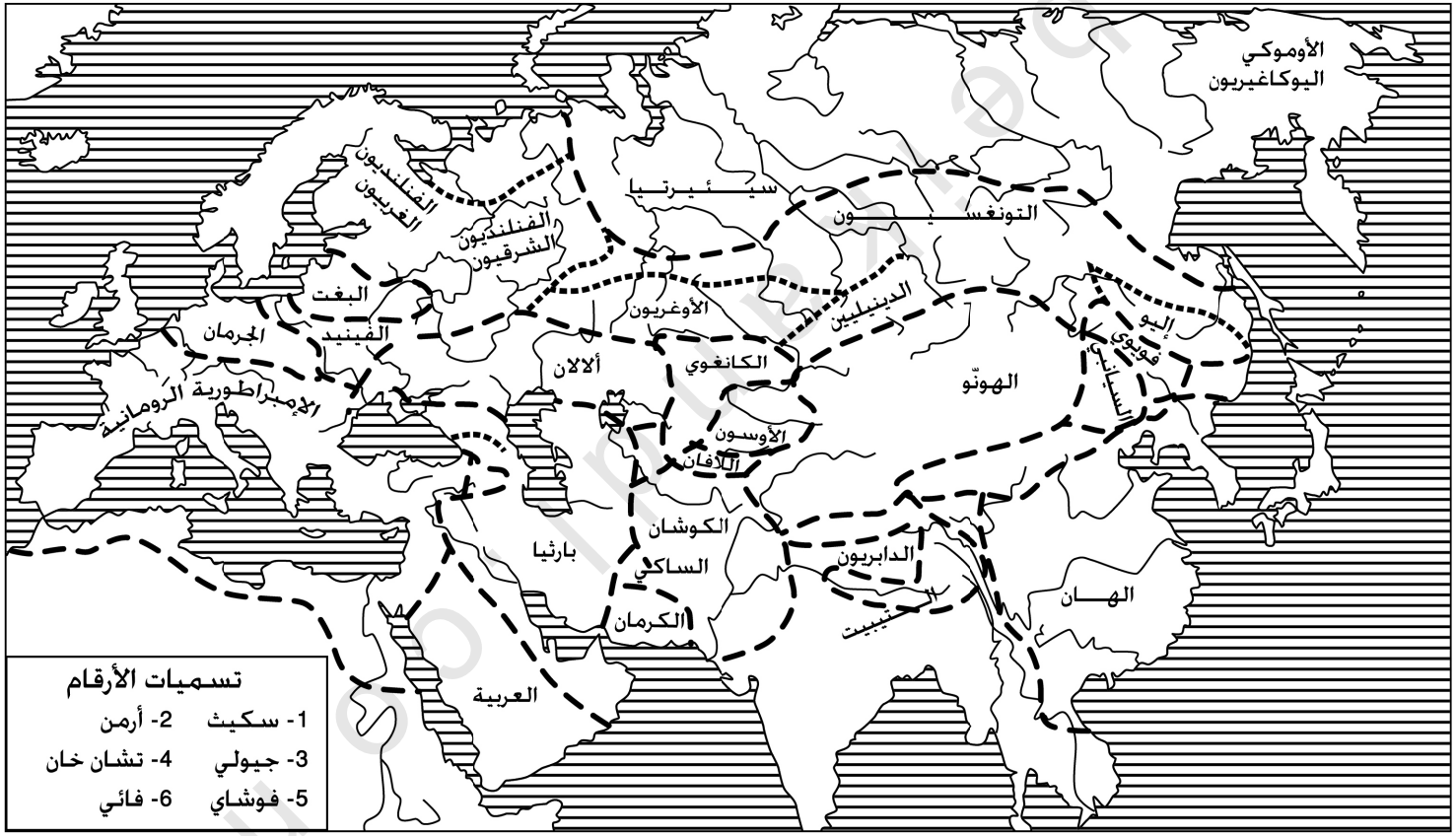

أوراسيا نحو عام 80 م

وأصبح الخزر محاصرين. من الشمال بالرحل المتقدمين من السهوب الجافة والمطاردين بالجوع والعطش، فهم جاؤوا بجماعات صغيرة سريعة الحركة يصعب الإمساك بها من المرتزقة جنود حرس العواهل الخزر، وكانت مفارزهم ضعيفة جداً لكي تستولي على مدينة أو تعتدي على الدلتا المأهولة إلا أنهم حاصروا الخزر وصاروا سادة السهب في الواقع.

ومن الجنوب هجمت باستمرار المياه البحرية وأغرقت ببطء الشاطئ المنبسط «الأراضي المنخفضة القزوينية» (تيمناً بهولندا - الأراضي المنخفضة - المترجم) مهلكة الزروع والبساتين وملحقة الخراب بالقرى، وحتى منتصف القرن العاشر أصبح ثلثا الأراضي الخزرية تحت الماء، وكان السكان مجبرين على الازدحام في سفوح تلال بائيرو في الدلتا المركزية حيث توضعوا على مقربة مباشرة من بعضهم بعضاً.

وصار الفولغا غزير المياه وأخذت الزوارق الروسية ذات الغاطس الصغير تشق طريقها خلال مجاري الدلتا إلى بحر قزوين، وحاول الملوك الخزريون بلا جدوى الحيلولة دون ذلك. وأبيدت إحدى المفارز الروسية غيلة في عام ٩١٣م بينما المفرزة والثانية اتبعت على ما يبدو الحذر ودخلت بهدوء إلى هناك ورجعت عبر قلب خازاريا في عام ٩٤٣-٩٤٤م وأخيراً اجتاح الأمير الكييفي سفياتوسلاف أيغوورفيتش بحملة واحدة الدولة المنهكة. وطلب الخزر الناجون من الاجتياح المساعدة العسكرية من خوارزم وحصلوا عليها مقابل الدخول في الإسلام ولكن لم تستطع البقية الباقية منهم العودة لأن البحر والجفاف استمرا بالضغط عليهم من الجهتين.

وعند نهاية القرن الثالث لما أصبحت كل بلادهم مغطاة بالبحر ذابت بقايا هذا الشعب في القبيلة الذهبية المتنوعة السلالات وتحولوا إلى التتار الاستراخانيين وبهذا انتهى تاريخ خازاريا.

يا لها من صورة سمحت الجغرافيا التاريخية برسمها ولأجل ذلك لكي ندرك ترابط الأحداث توجب استخدام أسلوب الاستكمال الذي يطبق عملياً على نحو واسع في الجيولوجيا والجغرافيا ولكن نادراً ما يستخدم في التاريخ وعلم الآثار، وبعض الاستنتاجات مبنية على نحو افتراضي.

وكان من غير الجائز التوقف عند ما تم التوصل إليه وإنما توجب مراجعة الافتراضات والحسابات بواسطة الاستطلاعات والتنقيبات الأثرية ولكننا لن ننكر فضل الجغرافيا بغض النظر عن أنها لم توضح لنا كل شيء، ولو لم يكن هذا خيط آريادينا لما كنا استطعنا التخلص من متاهة الحيرة والشك، ولو أن شيئاً ما في مكان ما غير دقيق تماماً - نجده وندققه لأننا الآن نعرف أين نبحث ونتحرك في دلتا الفولغا، بلاد الخزر حيث تنتظرنا ونحن في هذه الثقة الآثار الخزرية ولكن في بادئ الأمر نختبر آراءنا وتقديراتنا لأنها يمكن أن تكون ملائمة في الحالة الراهنة.